بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 23 فبراير 2017

العلم واللاهوت
في فلسفة نيوتن الطبيعية

عبد النبي مخوخ
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

العلم واللاهوت في فلسفة نيوتن الطبيعية[1]

[1] ألقيت هذه الورقة في ندوة: "الدين والعلم من منظور فلسفي"، المنعقدة بتاريخ 01 و02 نيسان/أبريل 2015م، اشراف د. صابر مولاي أحمد، تنسيق د. عبد النبي الحري. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بالتنسيق مع مختبر "التاريخ والعلم والمجتمع" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة شعيب الدكالي.

ملخص:

اعتبر اسحق نيوتن (Isaac Newton)، من قبل معظم معاصريه، عالماً خالصاً كرّس كلّ مجهوداته الفكرية للبحث في مجالات علمية دقيقة أبرزها الرياضيات، والبصريات، والفيزياء، وعلم الفلك. فعلى سبيل المثال، قدّمت دوبس (J.T. Dobbs) الصورة، التي نُسجت حول نيوتن منذ عصره، وكرّستها الأجيال اللاحقة، بالقول: «كُرّست صورة نيوتن، بوصفه بطلاً أساسياً للفكر؛ بل لمعت أكثر فأكثر من طرف أجيال العلماء والمؤرّخين المتلاحقة. فالعلوم الرياضية جعلت من كتاب **(المبادئ)** أنموذجها الأصلي، كما اعتمدت العلوم التجريبية على كتاب **(رسالة في البصريات)**. فغالباً ما اختُزلت التقارير التاريخية حول اسحق نيوتن في فقرة أو فقرتين، في العبارة المأثورة (أبو العلم الحديث). وهكذا، كان يُنظَر إلى نيوتن، أكثر فأكثر، بوصفه المحرّك الأوّل للعلم الحديث، أو العلّة الفاعلة، بالمعنى الأرسطي».

تقديم:

اعتبر اسحق نيوتن (Isaac Newton)، من قبل معظم معاصريه، عالماً خالصاً كرّس كلّ مجهوداته الفكرية للبحث في مجالات علمية دقيقة أبرزها الرياضيات، والبصريات، والفيزياء، وعلم الفلك. فعلى سبيل المثال، قدّمت دوبس (J.T. Dobbs) الصورة، التي نُسجت حول نيوتن منذ عصره، وكرّستها الأجيال اللاحقة، بالقول: «كُرّست صورة نيوتن، بوصفه بطلاً أساسياً للفكر؛ بل لمعت أكثر فأكثر من طرف أجيال العلماء والمؤرّخين المتلاحقة. فالعلوم الرياضية جعلت من كتاب **(المبادئ)**[1] أنموذجها الأصلي، كما اعتمدت العلوم التجريبية على كتاب **(رسالة في البصريات)**. فغالباً ما اختُزلت التقارير التاريخية حول اسحق نيوتن في فقرة أو فقرتين، في العبارة المأثورة (أبو العلم الحديث). وهكذا، كان يُنظَر إلى نيوتن، أكثر فأكثر، بوصفه المحرّك الأوّل للعلم الحديث، أو العلّة الفاعلة، بالمعنى الأرسطي»[2].

شكّلت هذه الصورة السند الأساسي للقراءة الوضعانية لفلسفة نيوتن الطبيعية، التي ظلّت مهيمنة مدّة طويلة. لقد رفضت هذه الأخيرة الاعتراف بلاهوت نيوتني كجزء لا يتجزأ من مؤلّفه. إنّها -وإن أقرّت بوجود لاهوت نيوتني- اعتبرته مجرد انشغال هامشي وعرضي، أو مجرّد ملحق لا يتماشى مع عقلية نيوتن ومنهجه العلمي. فالنصوص اللاهوتية القليلة، التي نشرها نيوتن، ليست، حسب هذه القراءة، إلا نصوصاً شاردة نُشرت تحت إكراهات خارجية، ولا تُعبِّر عن قناعات نيوتن الحقيقية.

على الرغم من التراجع، الذي عرفته الوضعانية، ما زال بعض الباحثين النيوتنيين المعاصرين يؤكّدون لائكية (Laicité) العلم النيوتني، معتبرين إيّاه مصدراً لفلسفات الإلحاد، التي عرفها القرن الثامن عشر. فجاروسون (B. Jarosson)، مثلاً، كتب «على الرغم من قناعات نيوتن الدينية، وباطنية فيزيائه، فإنّ هذا الفيزيائي الإنجليزي عَلْمَنَ العلم [فصله عن الدين] لكونه، خلافاً لديكارت، لم يجعله صادراً عن الله. فقوّة الجاذبية ظلّت غير مفسَّرة، لكن لا أحد قال إنّها صادرة عن الله. تزعم فيزياء نيوتن أنّها تحمل، في ذاتها، بذور تفسير شامل للكون. وبهذا المعنى، خدمت الإلحاد، الذي تطوّر في القرن الثامن عشر»[3]. ومن الفلسفات اللائكية والملحدة، التي تجد أصلها في فيزياء نيوتن، ذكر جاروسون فلسفة دالومبير (D'Alembert) وفلسفة ديدرو (Diderot).

---

1. يتعلّق الأمر بكتاب المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية، ظهرت الطبعة الأولى باللغة اللاتينية سنة 1687م، والطبعة الثانية سنة 1713م، والطبعة الثالثة سنة 1727م.

2. B.J.T. Dobbs, «Newton as Final Cause and First Mover», ***Isis***, 1994, p.633.

3. Bruno Jarosson, ***Invitation à la philosophie des sciences***, Ed. du Seuil, Paris, 1992, p.27.

في مقابل ذلك، كشفت المخطوطات النيوتنية، التي ظهرت منذ العقد الرابع من القرن الماضي، والدراسات المستندة إليها، عن ضحالة تلك الصورة. ففي هذا السياق، تبلورت قناعة لدى كلّ الباحثين النيوتنيين، الذين احتكّوا بتلك المخطوطات، بأنّ تلك الصورة لا تعكس وجه نيوتن الحقيقي. فهذا الأخير لم يكن عالماً فحسب لا يؤمن إلا بالتجربة والحساب، كما بدا للوضعانية، بل كان، أيضاً، لاهوتياً متميّزاً.

بعد وقفة سريعة مع القراءتين التقليدية والمعاصرة لعلاقة نيوتن بكلّ من العلم واللاهوت، سنحاول توضيح أنّ نيوتن نفسه يتحمّل مسؤولية كبرى في الصورة التقليدية، التي نُسِجَت حوله، إنْ لم نقل إنّه شارك في نسجها بفعل انطوائه، وتكتّمه، وإخفائه جزءاً مهماً من نشاطه الفكري. ولا يعود ذلك، في نظرنا، إلى العامل النفسي، الذي درج البحث النيوتني على التركيز عليه، بل يعود، أيضاً، إلى عوامل فكرية/ فلسفية، وسياسية، ودينية. ومن جهة ثانية، سنعمل على إبراز أنّ نيوتن؛ إذ ربط العلم بالدين، أقام علاقة جدلية بينهما.

1. نيوتن واللاهوت: من القراءة التقليدية إلى القراءة المعاصرة[4]:

لم ينشر نيوتن إلا جزءاً ضئيلاً من كتاباته اللاهوتية. ويمكن حصر النصوص اللاهوتية، التي نشرها، إبّان حياته، في بعض الأسئلة التي أضافها إلى الطبعة اللاتينية لكتاب **(رسالة في البصريات)**، التي ظهرت سنة (1706م)، و(التمهيد)، و(الملحق العام) اللذين أضافهما إلى الطبعة الثانية من كتاب **(المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية)** (1713م).

إنّ إحاطة أوليّة بهذه النصوص تسمح بإبداء ثلاث ملاحظات أساسية: فمن جهة أولى، شرع نيوتن في نشر هذه النصوص في مرحلة متأخّرة من حياته؛ لما بلغ الخامسة والخمسين من عمره تقريباً. ومن جهة ثانية، تتّسم هذه النصوص بالبساطة والسطحية، ولا ترقى إلى مستوى الكتابات اللاهوتية المتداولة في عصره؛ إذ اكتفت بتقديم بعض المواقف اللاهوتية العامّة المستمدّة من التقليد الأفلاطوني، على وجه الخصوص، الذي أشاعه مور (H. More) في كمبردج آنذاك. وأخيراً، يبدو أنّ هذه النصوص نُشِرت، بالفعل، تحت إكراهات خارجية؛ أي بفعل ضغط الانتقادات المتتالية التي وجهها إليه الخصوم، وعلى رأسهم ليبنتز (G.W. Leibniz)، وبركلي (G. Berkley).

يتّضح، إذاً، أنّ النصوص اللاهوتية المنشورة أسهمت في بلورة صورة نيوتن اللائكي، الذي همّش اللاهوت، وجعل منه مجرّد ملحق هامشي لا يرتبط عضوياً بعمله العلمي. ويبدو أنّ الوسط، الذي كان يعيش

4. يستعيد ويطوّر هذا الجزء من المقال بعض الفقرات الواردة في كتابنا: **فلسفة نيوتن الطبيعية، 1. الزمان والمكان**، مفاتيح العلوم، المغرب، 2010م، ص ص 224-227 خاصة.

فيه، ساعد على ترسيخ هذه الصورة إلى حدٍّ كبير؛ ذلك أنّه كان محاطاً بمجموعة من الأتباع والأصدقاء المشكوك في إيمانهم من قبل الأوساط الدينية. فصديقاه هالي (Edmond Halley) وكريكوري (William Gregory) اتُّهِما صراحةً بالإلحاد، كما أنّ آراء صديقه لوك (J. Locke) حول المسيحية رُفِضَت، جملة وتفصيلاً، من طرف الأرثوذكسية. وإضافةً إلى ذلك، طرد صديقه وستن (William Whiston)، الذي خلفه على الكرسي اللوكاسي[5]، من جامعة كمبردج، بسبب مواقفه الدينية، كما أنّ صديقه كلارك (Samuel Clarcke)، الذي تكفَّل الدفاعَ عنه ضد ليبنتز(G. W. Leibniz)، عبّر، صراحةً، عن مواقفه المناهضة للمذهب التثليثي. وبالجملة، إنّ نيوتن -وإن حرص دوماً على التميُّز بالنسبة إلى هؤلاء، وإن ظلّ حذراً ومتحفّظاً، تأثّرت صورته، بالتأكيد، بالمفكرين الذين كانوا يحيطون به. ويبدو، أيضاً، أنّ عدم التزام نيوتن بالممارسة المنتظمة للطقوس العملية للكنيسة أسهم، بدوره، في نسج تلك الصورة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الصورة وجّهت البحث النيوتني اللاحق. فمن جهة، لم يستقطب اللاهوت النيوتني اهتمام الباحثين لمدّة طويلة، من منطلق أنّه مجرّد مُلحق هامشي، ومن جهة أخرى، تعاملت الأعمال القليلة، التي تناولت الموضوع، مع اللاهوت النيوتني بانتقائية فجّة؛ إذ حرصت على نشر واستثمار النصوص التي تدعم الصورة السائدة. فعلى سبيل المثال، في سنة 1729م (أيّ سنتين بعد وفاة نيوتن)، قام وستن بإعادة نشر النصوص اللاهوتية نفسها، التي سبق لنيوتن أن نشرها[6]. وفي سنة 1733م، نشر سميث (Benjamin Smith)، ابن أخت نيوتن، بعض المخطوطات اللاهوتيّة التي تقدّم مواقف مألوفة لا تؤثّر في الصورة السائدة.

مباشرةً، بعد وفاة نيوتن، أدرك المقرّبون منه، من أقرباء وأصدقاء، أنّه كان ينتمي إلى صنف المفكرين الذين لا يفكّرون دون قلم[7]؛ إذ ترك ركاماً هائلاً من المخطوطات تحت وصاية كوندت (John Conduit)، زوج ابنة أخته كاترين بارتون (Catherine Barton)، الذي خلفه على رأس دار السكّة البريطانية. وبعد وفاتهما، أصبحت تلك المخطوطات في ملكيّة ابنتهما الوحيدة كاترين، التي تزوجت والوب (John Wallop)، ابن الإيرل بورتسماوث (Portsmouth)، سنة (1740م). ومنذ ذلك الحين، وضعت

5. في كانون الأول/ ديسمبر 1663م، أسّس الكرسي اللوكاسي في جامعة كمبردج بفضل هبة مالية للوكاس (Henry Lucas)، ممثل الجامعة في البرلمان سنتي 1639-1640. يُعدّ هذا الكرسي أشهر كرسي في العالم إلى يومنا هذا، بالنظر إلى المفكرين الذين تقلّدوه. كان إسحق باروو(Isaac Barrow) أوّل أستاذ تقلّده سنة 1664م، وفي سنة 1669م، تخلّى عنه لصالح تلميذه إسحق نيوتن، الذي تخلّى عنه بدوره لصالح وستن. ومنذ ذلك الحين، تعاقب على هذا الكرسيّ زهاء أربعة عشرَ أستاذاً منهم ورينغ(Edward Waring)، وباباج(Charles Babbage)، وستوكس(George Stokes)، وديراك (Paul Dirac)وهوكينغ (Stephen Hawking).

6. W. Whiston, Sir Isaac Newton's Corollaries from his Philosophy and Chronologie inhis own Words, London, 1929.

7. في هذا الصدد، كتب كويري(A. Koyré): «تكشف مخطوطات نيوتن (الآلاف والآلاف من الصفحات) عن سمة غريبة لذهنيّة مؤلّفها: يبدو أنّه كان يعجز عن التفكير دون قلم؛ بل أبدى متعة في الممارسة الميكانيكية للكتابة؛ فكان ينقل بيده نصوص المؤلفين الذين يقرؤهم، ونصوصه الخاصّة. تكشف هذه المخطوطات، أيضاً، عن العناية الكاملة التي كان يوليها لمؤلّفاته: كان يكتب، ويشطب، ويعيد كتابة الكلّ، فيشطب، ويصحّح، وينقل من جديد [...] وبعد الانتهاء، يعيد الكرّة مرّة أخرى. وهكذا كتب، على الأقل، ثمانية مسودات للملحق العام [الذي أضافه] إلى الطبعة الثانية». A. Koyré, Etudes Newtoniennes, Ed. Gallimard, Paris, 1968, p.317

تلك المخطوطات رهن إشارة الباحثين النيوتنيين. الشيء الذي سمح لهورسلي (Sammuel Horsley) بالاطلاع عليها أثناء تهييئه (للأعمال الكاملة) لنيوتن ما بين (1779 و1758م)[8]، كما تمكّن بروستر (D. Brewster) من الاطلاع عليها في مرحلة تهييئه لكتابه التاريخي (**مذكرات السير إسحق نيوتن**)[9].

وفي سنة (1872م)، بعد نحو قرن ونصف على وفاة نيوتن، أُودعت تلك المخطوطات في جامعة كمبردج، فشُكِّلت لجنة خاصّة لتصنيفها وفهرستها. وفي سنة (1888م)، نُشِر فهرس المخطوطات النيوتنية، الذي بلورته تلك اللجنة، تحت عنوان: (فهرس مجموعة بورتسماوث)(Catalogue of the Portsmouth Collection)، مقسَماً إلى خمسة عشر باباً: الرياضيات، والكرونولوجيا، والتاريخ، ومخطوطات لاهوتية، والمراسلة والكتب، ومخطوطات متنوعة، ومخطوطات تتعلّق بفلامستيد (Flamsteed)، ورسائل الإشادة لفونتنيل (Fontenelle)، ومسودات كتبها كوندت حول حياة نيوتن، ومخطوطات كُتِبت حول حياة نيوتن بعد وفاته، وأوراق متعلّقة بعائلة نيوتن، وكتب وأوراق لم تُكتَب من طرف نيوتن، ورسائل مجاملة.

مباشرةً بعد انتهاء اللجنة من عملية التصنيف والفهرسة، أودعت عائلة الإيرل بورتسماوث المخطوطات العلمية في جامعة كمبردج (المخطوطات الرياضية والكيميائية، والمراسلة، والكتب، والمخطوطات المتعلّقة بفلامستيد)، في حين احتفظت بباقي المخطوطات، بما في ذلك المخطوطات اللاهوتية، إلى أن عرضتها للبيع بالمزاد العلني سنة (1936م). وُزِّعت تلك المخطوطات على ثلاث مجموعات، وقام كلّ من عالم الاقتصاد كينس (John Maynard Keynes) وBabson، ويهودا (Yahuda) باقتنائها، وأودعوها على التوالي في كلٍّ من مكتبة الثانوية الملكيّة (Library of King's Colledge)، ومكتبة معهد بابسون (Babson Institute Library)، والمكتبة الوطنية، والجامعية اليهودية في القدس (Jewish National and University Library). ومنذ ذلك الحين، بدأت تظهر مخطوطات نيوتنية أخرى في الجامعات الأمريكية، ولدى الخواص؛ كما اتّضح أنّ مسودات التقارير المالية، التي كان يحرّرها نيوتن في دار السكّة، تعجّ بالتأمُّلات اللاهوتية.

وبناءً عليه، أصبح بإمكان الباحثين النيوتنيين الاطلاع على مجمل أعمال نيوتن، بعد مرور أزيد من قرنين على وفاته. إنّ المجهودات الجبّارة، التي بُذِلَت من أجل تحقيق، ونشر، ودراسة، المخطوطات النيوتنية، جعلت الباحثين يقتنعون بضرورة إعادة النظر في صورة نيوتن التقليدية. فبعد اطّلاعه على المخطوطات، التي اقتناها شخصياً، كتب كينس: «لم يكن نيوتن الأوّل في قرن العقل، ولكنّه كان الأخير

8. في الحقيقة، لا ترقى هذه الأعمال إلى مستوى الأعمال الكاملة، لكونها لم تقدّم إلا النزر القليل من النصوص النيوتنية. S. Horsley, Isaac .Newtoni Opera Quar Extant Omnia, London, 1779-1785

9. D. Brewster, Memoirs of Sir Isaac Newton, Edinburg, 1855.

في قرن السحرة، وآخر البابليين والسومريين، وآخر العقول الكبيرة، التي اخترعت العالم المرئي، وعالم الأرواح، في عيون أولئك نفسها، الذين شرعوا في تشييد تراثنا الثقافي منذ أقل من 10000 سنة»[10]. ومن جهته، وبعد أن استحضر تلك المخطوطات، انتهى أندراد (E.N. da Costa Andrade) إلى القول: «ليس من المعقول إهمال نصف الحياة الفكرية لرجل؛ لأنّ ذلك يجعل من السهل شرح النصف الآخر»[11]. وإجمالاً، كشفت تلك المخطوطات أنّ نيوتن لم ينشغل بالعلم فحسب، بل انشغل بمجالات أخرى دأبت الوضعانية على وسمها بـ(اللاعلم) مثل التنجيم، والخيمياء، واللاهوت.

تكشف المخطوطات المشار إليها أنّ نيوتن كان لاهوتياً كبيراً؛ لا يقلُّ دهاءً لاهوتياً عن رجال اللاهوت المعاصرين له. فمن جهة، تكشف تلك المخطوطات أنّه انشغل كثيراً باللاهوت، ذلك أنّ الجزء الأكبر من مخطوطات بورتسماوث انصبَّ على اللاهوت[12]. فعلى سبيل المثال، أكّد سنوبوليس(S. Snopolis)، أحد أبرز الباحثين في اللاهوت النيوتني، أنّ نيوتن قضى خمسين سنة من عمره يبحث عن موعد نهاية العالم، وكتب في هذا الموضوع نحو (4500) صفحة. ومن جهة أخرى، تثبت تلك المخطوطات اللاهوتية أنّ انشغال نيوتن باللاهوت لم يكن انشغالاً ظرفياً أو مؤقّتاً، ولكنّه كان انشغالاً مسترسلاً بدأ في مرحلة متقدّمة من حياته، واستمرّ إلى نهايتها.

يعود احتكاك نيوتن باللاهوت إلى مرحلة الطفولة؛ فالمصادر تذكر أنّه كان كثير الإقبال على قراءة الكتب اللاهوتية، التي كانت تزخر بها مكتبة زوج أمه، خلال زياراته المتكرّرة إليها[13]. الأمر الذي جعل هذا الأخير يوصي بتسليم مكتبته كاملة لنيوتن عند وفاته سنة (1653م). فمنذ ذلك الحين، لم يتوقّف انشغال نيوتن باللاهوت. ففي سنة (1661م)، لمّا لم يكن عمره يتجاوز الثامنة عشرة، التحق بثانوية ترينيتي (Trinity

10. J.M. Keynes, «Newton, the man», in Royal Society trecentenary Celebrations (15-17 juillet 1946), The Un - versity Press, Cambridge, 1947, p.27.

يشتمل هذا الكتاب على أعمال الندوة، التي نظّمتها الجامعة الملكية في تموز/ يوليو (1946م) حول نيوتن، بمناسبة مرور ثلاثة قرون على ميلاده. نشير إلى أنّه كان من المقرّر عقد هذه الندوة سنة (1942م)، إلا أنّ ظروف الحرب العالمية الثانية حالت دون ذلك. نشير، أيضاً، إلى أنّ كينس كان مدعواً للمساهمة فيها إلى جانب أندراد وترنبل(H. W) Turnbull))، وبوهر (Niels Bohr)، وهدمار (Jacques Hadamard). غير أنّ كينس توفي قبل انعقاد الندوة بثلاثة أشهر، في نيسان/ أبريل 1946م. الأمر الذي جعل أخاه كوفراي (Geoffrey Keynes) يتكفّل تقديمَ الورقة التي كان قد أعدّها للندوة.

11. المرجع نفسه، ص 21

12. تشتمل المجموعة التي اقتناها كينس على سبع نسخ من مخطوط (Irenicum, or Ecclesiastical polyty tending to Peace)، ومخطوط (A Schort Scheme of True Religion)، ونسخة من مخطوط (Commentary of the Apocalypse) (وهو مخطوط طويل مكوّن من تسعة فصول)، ومخطوط ينتقد أتنزيوس يحمل عنوان: (Paradoxical Questions Concerning the Morals and Actions of Athan -sius and his Followers). أمّا مجموعة بابسون، فتشتمل على مخطوط (The Temple of Solomon) مُرفقاً برسم هندسي له، ومجموعة من النقط المتفرقة، ومجموعة من المخطوطات تتناول تاريخ الكنيسة. وأخيراً، تشتمل مجموعة يهودا على عدد من المخطوطات اللاهوتية، ومخطوطات حول تاريخ الكنيسة، ومخطوط (شروحات حول الوحي)(Commentaries on Prophecy)، ومخطوطات تناولت طبيعة المسيح.

13. توفي أبو نيوتن في نيسان/ أبريل (1642م)، تاركاً زوجه حنا إيسكيو (Hannah Ayscough) حاملاً به. ولما كان في الثالثة من عمره، تزوجت أمُّه القسّ سميث، الذي كان عمره يناهز الثالثة والستين. رحلت حنا لتعيش مع زوجها الجديد، تاركةً ابنها نيوتن في إقامتها الأولى تحت رعاية والدتها ماركري. وبما أنّ منزل والدته الجديد لم يكن يبعد عن محل إقامته إلا ميلين، كان يزورها من حين لآخر.

college) في كمبردج، لدراسة الهندسة والرياضيات. وإذا كان قد أبان عن تفوّق كبير في هذه المواد إلى درجة جعلته يثير انتباه أستاذه إسحق باروو (Isaac Barrow)، فإنّ المخطوطات المتوافرة تثبت أنّه كان منشغلاً، أيضاً، باللاهوت، بالإضافة إلى الخيمياء، وعلم الفلك، كما تثبت أنّه استمرّ على هذا الحال طوال حياته.

2. أسباب عزوف نيوتن عن نشر كتاباته اللاهوتية:

يتّفق الباحثون النيوتنيون على ردّ عزوف نيوتن عن نشر المخطوطات اللاهوتية إلى طبيعة شخصيّته أو بنيته النفسية. إنّهم يتفقون، استناداً إلى بعض التصريحات النيوتنية، وشهادات بعض أصدقائه، على تأكيد نفور نيوتن من الجدالات، وحرصه الشديد على تفادي الخوض العلني في الأمور الخلافية، التي من شأنها أن تقحمه في صراعات تؤرّقه، وتصرف نظره عن اهتماماته الأساسية. وإذا كان هذا التفسير وارداً، فإنّه غير كافٍ لتفسير هذا السلوك. إنّنا نعتقد بوجود أسباب فلسفية-فكرية، وسياسية-دينية، كامنة وراء ذلك العزوف.

فمن جهة أولى، إنّنا نتوافر على معطيات وافرة تثبت أنّ نيوتن لم يكن متناغماً مع المناخ الفكري السائد في إنجلترا آنذاك، والمطبوع بميولات «تجربانية» واضحة. إنّنا نعتقد أنّه من الصعب تنميط فكر نيوتن؛ إذ تتداخل فيه الميولات «التجربانية» بالميولات العقلانية؛ بل نستطيع أن نتحدّث عن ميولات قبلانية، وباطنية، وغنوصية أيضاً. فعلى سبيل المثال، في سياق سعيه لتوضيح نعته لنيوتن بـ(الأخير في قرن السحرة، وآخر البابليين والسومريين)، كتب كينس: «لماذا إطلاق اسم ساحر على نيوتن؟ لأنّه كان يعتبر الكون برمّته، وكلّ ما يحتويه، لغزاً أو سرّاً يمكننا قراءته بالدراسة الفكرية الخالصة لبعض الرموز، ولبعض الطرق الصوفية، التي رسمها الله على الأرض، فاتحاً بذلك نوعاً من البحث عن الكنز الفلسفي أمام طائفة الباحثين الباطنيين. كان يعتقد أنّه بإمكاننا اكتشاف تلك الطرق بملاحظة الظواهر السماوية، وبتحليل تشكل العناصر (وهذا ما أفرز الفرضية الخاطئة [القائلة] بأنّه كان فيلسوفاً تجريبياً للطبيعة)، وبدراسة بعض الكتابات والتقاليد أيضاً...»[14].

والواقع أنّ موقف كينس هذا لا يخلو من وجاهة؛ ذلك أنّ نيوتن كان يتبنّى موقفاً غريباً للمعرفة: كان يعتقد أنّ القدماء، من وثنيين، ويهود، ومسيحيين، وعرب، وغيرهم، كانوا يمتلكون معارف دقيقة وعميقة عبّروا عنها بوسائل مختلفة، من صور، وأساطير، وأمثال، ورموز متنوّعة. ولذلك، يمكن لفيلسوف الطبيعة أن يعيد اكتشاف تلك المعارف إذا تمكّن من فكّ الرموز التي صيغت بها. وفي هذا السياق، أكّد أنّ ملاحظة الظواهر الطبيعية قد تساعد على فكّ تلك الرموز. والأنكى من ذلك، لقد ذهب إلى حدّ القول: إنّ نظريته حول التجاذب الكوني ليست اكتشافاً أصيلاً، ولكنّها مجرد إعادة اكتشاف؛ ذلك أنّ القدماء كانوا على علم بها. لقد

14. J.M. Keynes, «Newton, The Man», p.29.

أثار هذا الموضوع في مناسبات متعدّدة، وقدّم عدّة نظريات قديمة أوحت بها على حدٍّ زعمه. ففي مخطوط كان قد أعدّه للنشر بالطبعة الثانية من كتاب **(المبادئ)**، ذهب إلى حدّ القول: إنّ فيثاغورس (Pythagore) كان يملك معلومات كمية دقيقة حول تجاذب الأجسام السماوية؛ بل كان يعرف أن تجاذب جسميين سماويين يتناسب عكساً مع مربع المسافة الفاصلة بينهما[15].

ومن جهة أخرى، يمكن ردّ عزوف نيوتن عن نشر كتاباته اللاهوتية إلى عوامل سياسية ودينية. لقد ذكر كينس أنّ نيوتن لم يتردّد في شكر الله، لكونه ولد وعاش في بلد الحرية، حيث أمكنه التعبير عن رأيه دون الخوف من المحاكمة، خلافاً لما كان عليه الحال بالنسبة لديكارت. لقد قال لكوندت: «إنّه لم يكن مضطراً للذهاب إلى بلد أجنبي ليعلن عن تبنّيه استحالة القربان (La transubstantiation) في فلسفته»[16]. يبدو لنا أنّ الأمر لم يكن كذلك، حتى وإن صحّ ما نسبه كينس إلى نيوتن؛ ذلك أنّ إنجلترا عرفت، طوال حياة نيوتن، تقلّبات سياسية كثيرة ارتبطت بصراعات دينية محتدمة بين الكاثوليكية، والبروتستانتية، والأنجليكانية[17]، وبصراعات اقتصادية واجتماعية حادّة، ولم تعرف بعض الاستقرار السياسي، والانفراج الديني، إلا في مرحلة متأخّرة من حياته.

أدّى هذا الوضع إلى محاصرة الحرّيات الفردية والجماعية؛ بل إلى حروب أهلية طاحنة أودت بحياة الآلاف من المواطنين الإنجليز. فعلى سبيل المثال، كانت إنجلترا خاضعة لحكم الملك شارل الثاني (Charles II) في الفترة التي نعتها نيوتن بـ (أوج حياتي العلمية)، والتي كتب، خلالها، بعض النصوص اللاهوتية المهمّة، والتي لم يتجرّأ على نشرها. فالدراسات التاريخية تؤكّد أنّ هذا الملك كان ملكاً مستبدّاً، يُمارس سلطة مطلقة، ويتحكّم كليّة في السلطتين الدينية والسياسية. فتحت عنوان: (ملكية مطلقة؟)، قدّمت طوطل (E. Tuttle) الملامح الكبرى لسياسة شارل الثاني على النحو الآتي: «في مراسلته، لم يُخفِ شارل الثاني إعجابه بقريبه لويس الرابع عشر، وعمل على تكريس السلطات التي كان يتمتّع بها أبوه وجدّه، فاستعاد سلطة تسمية الوزراء، وكلّ ضباط التاج والكنيسة. كان يستحوذ على صلاحية الدعوة إلى انعقاد البرلمان وحلّه؛ كما كان يملك حقّ الفيتو التشريعي، وحرمان المواطنين من قوانين وعدالة المملكة [...] فمنذ (1661م)، تمّ التضييق كثيراً على حريّة التعبير، فمنعت العرائض الموسومة بـ (المثيرة)؛ أي القادرة

15. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:

Pierre Thuillier, «Isaac Newton, un alchimiste pas comme les autres», La Recherche, n°212, Juillet/Aout 1989, Vol.20, p.880-881.

16. Frank Manuel, The religion of Isaac Newton, p.31.

17. ذهب مانويل إلى حدّ القول: إنّ الكنيسة الإنجليزية كانت تعرف (أزمة هوية) آنذاك. ففي هذا الصدد كتب: «إنّ الجدالات المفتوحة، والتقارير المكتوبة، حول الجدالات الخاصّة، التي تمّت بين رجال الدين، تترك الانطباع بأنّ هذه الكنيسة كانت تعاني مما يمكن أن يسميه المبسطون اليوم (أزمة هوية). المرجع نفسه، ص 5

على إثارة [غضب] الشعب. وعلى غرار ما كان عليه الحال قبل (1642م)، صدر قانون يُعيد الرقابة، حيث فرض على الكتابات المراد نشرها الحصول على ترخيص من طرف لجنة معيّنة من طرف الحكومة»[18].

يبدو أنّ هذا الوضع شكّل مصدر قلق مستمر لدى نيوتن. فبعد وفاته بقليل، كتب صديقه كريك رسالة إلى كوندت أكّد فيها أنّ نيوتن «كان أكثر قلقاً في أبحاثه الدينية من أبحاثه في الفلسفة الطبيعية»[19]. إنّنا نعتقد أنّ هذا الوضع فرض على نيوتن، رجل الدولة المتمتِّع بحظوة كبيرة، وامتيازات كثيرة[20]، عدم نشر مخطوطاته اللاهوتية. تزداد هذه القناعة ترسُّخاً إذا أضفنا أنّ قناعات نيوتن الدينية لم تكن، دائماً، منسجمة مع عقيدة الكنيسة الإنجليزية، ولم تكن مسايرة للسياسة الدينية الرسمية.

فمن جهة، رفض نيوتن، صراحةً، بعض عقائد الكنيسة الإنجليزية، وعلى رأسها عقيدة التثليث (La Trinité). فالمخطوطات اللاهوتية تكشف أنّه تبنّى، منذ (1672م)، على الأقل، موقفاً مناهضاً لعقيدة التثليث، متّهماً الكاثوليكية والبروتستانتية معاً بتحريف المسيحية الأصلية. وفي مقابل ذلك، أعرب عن ميولات أريوسية[21] واضحة. فخلافاً للتقليد السائد آنذاك، لم يكتفِ نيوتن بقراءة نسخة الملك جيمس للإنجيل، التي اشتملت على عبارة «هؤلاء الثلاثة (الأب، والابن، وروح القدّس) هم واحد»، بل إنه عمد إلى مقارنتها مع نسخ الإنجيل القديمة. الشيء الذي سمح له باستنتاج أنّ هذه العبارة لا توجد في النسخ الإغريقية، التي تمكّن من الاطلاع عليها. ومن ثمّة، استنتج أنّ عقيدة التثليث، وكلّ ما ترتّب عليها، لا توجد في النصوص الأصلية.

من جهة أخرى، لم يكن نيوتن راضياً عن الوضع المتأزم، الذي كانت تعرفه الكنيسة آنذاك؛ بل لم يتردد في تحميل السلطتين السياسية والدينية مسؤولية ذلك الوضع، وفي التنديد بأسلوب القوّة المعتمد من طرف هاتين السلطتين لحمل الناس على التديُّن، وفرض وحدة وانسجام الكنيسة عبر فرض توجُّه عقدي محدّد. وفي هذا السياق، تبنّى موقفاً متفتّحاً؛ إذ دعا إلى ضرورة التشبُّث بالثوابت الدينية الأساسية، وأقرّ بمشروعية الاختلاف في الأمور الفرعية. ومن هذا المنظور، اعتبر الرغبة الجامحة في فرض انسجامٍ تامٍّ

18. Elisabeth Tuttle, Les Iles Britaniques à l'âge moderne 1485-1783, Hachette, Paris, 1996, p.139.

19. F. Manuel, The religion of Isaac Newton, p.8.

20. نذكر، على سبيل المثال، أنّ نيوتن بدأ مشوار حياته العملية أستاذاً جامعياً، ثمّ عُيّن برلمانياً، وتقلّد مناصب في أعلى هرم السلطة؛ مفتش المال بدءاً من سنة (1696م)، ثمّ مديراً للمالية إلى وفاته.

21. الأريوسية مذهب مسيحي، أسّسه الاسكندراني أريوس (Arius) (256-336م)، الذي قدّم قراءة جديدة للإنجيل أفضت إلى رفض عقيدة التثليث، وتبنّي موقف توحيدي.

بين المسيحيين جريمة كبرى، كما شبّه الحكّام المعاصرين له بأباطرة الرومان المتأخرين، مؤكّداً أنّ الكنائس التي تلجأ إلى الجيوش لفرض توجهاتها تخرق قانون المسيح[22].

لا تخرق السياسة الدينية القائمة، حسب نيوتن، قانون المسيح، وتملأ الكنائس بالمنافقين فحسب، بل إنّها تستغلّ الدين لخدمة أغراض خاصّة. ففي هذا الصدد، كتب: «وضع هؤلاء الأباطرة [الرومان]، عبر مجالس كنائسهم، مجموعة من البنود الإيمانية في صيغ [دخيلة] غير متوارثة عن الحواريين، وكيّفوا الدّين المسيحي لينسجم مع إمبراطوريتهم، ومع ميولات رعاياهم (الوثنيين، والمهرطقين، والمسيحيين)»[23]. ويبدو أنّ ما قاله عن أباطرة الرومان ينطبق، أيضاً، على حكام عصره الذين لم يتردّد في نعتهم بـ (أباطرة الرومان المتأخرين).

لم يكتفِ نيوتن بانتقاد السياسة الدينية القائمة؛ بل قدّم الخطوط العريضة لسياسة بديلة زعم أنّها جديرة بتحقيق وحدة واستقرار الكنيسة، وسلام المسيحيين. تقوم هذه السياسة على مبدأ العودة إلى الأصول، وتطهير الدين المسيحي من الشوائب، التي لحقت به عبر العصور. وفي هذا السياق، أكّد نيوتن أنّ وحدة وانسجام الكنيسة لا يعنيان انسجاماً تامّاً يُرادُ فرضه بالقوّة، ولكنّه يعني، فحسب، تشبُّث الجميع بالثوابت الأساسية للدين المسيحي؛ أي المبادئ المؤسِّسة التي وسمها بـ «قوانين الطبيعة، الجزء الأساسي من الدين الذي كان، وسيظلُّ، دوماً، ملزماً لكلِّ الأمم، المتمتع بطبيعة ثابتة أبدية لقيامه على مبدأ ثابت»[24]. غير أنّ عملية تحديد تلك الثوابت تفرض العودة إلى الأصل، أو إلى الصيغة الأولى، التي التحم حولها المسيحيون قبل أن يفعل التحريف فعله في المسيحية.

وبالموازاة مع ذلك، ألحَّ كثيراً على ضرورة صياغة تلك الثوابت باللغة الأصلية؛ لغة الأنبياء والحواريين. ففي هذا الصدد، كتب: «إنّنا مدعوون، بإلحاح، من طرف الحواري لاستعمال الكلمات السليمة. إنّ الأخذ بلغة لم تُستعمَل من طرف الأنبياء والحواريين هو نقضٌ لتلك الدعوة تسبّب في انشقاقات وبروز شيع شتى. فلا يكفي القول بضرورة استنباط بند إيماني من الكتاب المقدّس، ولكن يجب أن يُصاغ بالكلمات السليمة نفسها التي استعملها الحواريون. وفي غياب ذلك، لا يمكن للكنيسة الكاثوليكية أن تعرف سلاماً ولا استقراراً راسخاً؛ ذلك أنّ الناس قابلون للاختلاف، وللجدل، وللشقاق، بفعل الاستنباطات. فكلّ البدع القديمة

22. بهذا الصدد، كتب: «إنّنا لا نقيس المضطهدين بمقاييس المضطهدين. يمكن للقاضي أن يُعاقِب أو يحكم بإعدام أيّ كان بسبب انحرافاته، أو أفعاله الشنيعة، ولا يمكنه فعل ذلك لأساتذة المسيحية بسبب آرائهم المغلوطة [...] يمكن للكنيسة أن توبّخ، أو تكفّر، لكنها ليست سلطة لحمل جيش القضاة على التلويح بسيفها. ولذلك، إنّها تجعل من نفسها الحكم والمُنفّذ [في الوقت نفسه]. يمكنها أن تكفّر دون أن تحمل [الناس] على التديُّن بالقوّة. فالمسيح لم يعتمد، أبداً، ذلك [الأسلوب] للحفاظ على نفسه، ولكسب الحظوة. فإذا أردنا أن نستقطبهم، يجب أن نستعمل الوسائل الخاصّة لبثّ الإيمان فيهم، لا أن نحملهم على القيام بما هو متعارض مع قناعاتهم بالقوّة، معتبرين كلّ ما لا يرتبط بالإيمان خطيئة. يمكن للكنيسة أن تضاعف عدد مريديها بالقوّة، لكنّها تحطُّ من شأنها بانسجامات مصطنعة. لا تنفع القوّة إلا مع المنافقين [...] إنّني أرى في ذلك السبب الرئيس للامبالاة الرومان اللاحقين على تيوسيوس [الذي] اضطهد العقول، وملأ الكنائس بمنافقي الامبراطورية...» أورده: F. Manuel, The religion of Isaac Newton, p.32

23. المرجع نفسه.

24. المرجع نفسه.

تجد مصدرها في الاستنباطات. أمّا الإيمان الحقيقي فيوجد في النصّ»[25]. والواضح أن تركيز نيوتن على عنصر اللغة يرجع إلى قناعته بكون إقحام مصطلحات جديدة دخيلة لا وجود لها في الكتاب المقدّس، أدّى، إلى جانب التحريف الذي شابه، إلى الغموض الذي اكتنف المسيحية منذ القرن الثاني الميلادي، ومن ثمّ إلى تأويلات مختلفة أفرزت طوائف شتى.

خلاصة القول، يتضح جلياً أن نيوتن تبنّى سياسة دينية متعارضة مع السياسة الدينية القائمة؛ ولذلك، لم يكن بإمكانه، وهو الحريص على تفادي المواجهة مع السلطتين الزمنية والدينية والجدالات المؤرقة، الجهر بها، و، بالأحرى، نشرها. فحسب نيوتن، لم تكن وحدة الكنيسة تتطلّب تطابقاً تامّاً بين المسيحيين يُراد فرضه بالقوّة؛ بل كان يتطلّب، فحسب، الالتفاف حول الثوابت الأساسية المستقاة من الوحي شكلاً ومضموناً. أمّا الاختلاف في الفروع والطقوس، فهو أمر مشروع وواقع قائم لا سبيل إلى إلغائه. وعليه، في مقابل سياسة دينية متعصّبة ومنغلقة رامت فرض الانسجام بالقوّة، تبنّى نيوتن سياسة دينية معتدلة ومنفتحة.

3. العلم واللاهوت لدى نيوتن:

تعدُّ مشكلة العلاقة القائمة بين العلم والدين مشكلة قديمة شغلت الفكر البشري على مرِّ العصور. غير أنّها طُرحَت بحدّة في العصر الحديث، بدءاً من القرن السادس عشر. ففيما مضى، كان الاهتمام منصبّاً على التوفيق بين الدين والحكمة، باعتبارهما مجالين قابلين للاجتهاد والتأويل؛ ولذلك ظلّ الموضوع خاضعاً لجدالات مفتوحة. أمّا في العصر الحديث، فقد تغيّر الوضع جذريّاً، حيث أصبح الأمر يتعلّق بالبحث في العلاقة القائمة بين التعاليم الدينية، واكتشافات علمية دقيقة يصعب دحضها أو تأويلها، قام بها علماء مقتنعون بعلمهم، ومستعدون للتضحية من أجله؛ كما أنّ معظم تلك الاكتشافات برزت بوصفها حقائق متعارضة مع التصوّرات الدينية السائدة.

وعليه، استقطب هذا الموضوع اهتمام العلماء ورجال الدين على السواء في القرن السابع عشر. فإذا كان معظم رجال الدين مالوا إلى رفض العلم، بدعوى أنّه يؤدّي إلى الإلحاد، أو يفتح الباب على مصراعيه أمام قراءات جديدة للدّين قد تفرز بِدعاً جديدة، فإنّ العلماء والفلاسفة انقسموا بشأن هذا الموضوع إلى طائفتين: طائفة تدعو إلى تدعيم العلم، وتفضيله على اللاهوت، واعتباره مجرّد مُلحق له؛ بل منهم من دعا إلى فصل اللاهوت عن العلم، والتخلّي عن الانشغال بقضاياه، وطائفة أخرى؛ إذ اعترفت بضرورة العلم، دعت إلى إخضاعه للاهوت اقتناعاً منها بسموِّ الكتاب المنزّل بالنسبة إلى كتاب الطبيعة، ودرءاً لكلِّ أذىً يمكن أن يلحقه العلم بالدين.

25. المرجع نفسه.

يُعَدُّ ديكارت أحد أبرز مفكري النصف الأوّل من القرن السابع عشر، الذين دافعوا عن الموقف الثاني؛ ذلك أنّه رهن المعرفة البشرية بما في ذلك المعرفة العلمية في معرفة الله. فبما أنّ المعرفة البشرية صادرة عن مجموعة الأفكار الأولية، والمفاهيم المشتركة، التي طبعها الله في العقل الإنساني، فإنّه لا يمكن «امتلاك أيّ علم يقيني إذا لم يعرف ذلك الذي خلقها»[26]. وبما أنّ العالم، موضوع العلم الطبيعي، هو من خلق الله، فلا يمكن تفسيره إلا بالعودة إلى خالقه؛ ولذلك وجد ديكارت نفسه مضطراً إلى ربط المبادئ الأساسية لفيزيائه بمبدأ الثبات الإلهي.

وأخيراً، نُشير إلى أنّ هذا الموقف، الذي يؤسّس العلم على اللاهوت، عرف انتشاراً واسعاً في أوروبا آنذاك؛ إذ تبنّته مجموعة من العلماء أبرزهم مالبرانش (N. Malebranche) وليبنتز.

وفي مقابل ذلك، نظر بعض العلماء إلى العلم بوصفه مثلاً أعلى يسبق المعرفة اللاهوتية. فعلى سبيل المثال، لاحظ كل من كبلر (N. Kepler) وغاليلي أنّ كتاب الطبيعة، والكتاب المقدّس، يختلفان اختلافاً جذرياً، وإن كانا معاً من خلق الله. فكتاب الطبيعة كتاب مُعقّد، مكتوب بلغة رياضية، ومفتوح أمام العلماء فحسب؛ في حين أنّ الكتاب المقدس كتابٌ سهل، وموجّه إلى الجميع. ومن ثمّة، استنتجا أنّ البحث في الطبيعة أولى وأسمى من البحث في الكتاب المقدّس؛ ولذلك كانا يشعران بتفوقهما على رجال الدين، وكانا يدعوان هؤلاء إلى الاهتمام بالعلم، ولاسيّما علم الفلك. ويبدو أنّ هذا الموقف أقحم غاليلي في مواجهة مفتوحة مع رجال الدين أدّت به إلى محكمة التفتيش سنة (1633م).

عرف هذا الموقف انتشاراً واسعاً في الأوساط العلمية الإنجليزية بفعل تأثير فلسفة فرنسيس بيكون (F. Bacon). إنّ المشروع الفلسفي لهذا الأخير، الذي نعته (الإحياء العظيم)، استهدف تحقيق هدف واحد ووحيد وهو السيطرة على الطبيعة خدمةً لرفاهية الإنسان. وفي هذا السياق، أكّد أنّ الوسيلةَ الوحيدة لتحقيق ذلك الهدف هي العلم؛ ولذلك اعتبر الطموح العلمي أسمى وأنبل الطموحات[27].

وبناء عليه، دعا بيكون، بجرأة ووضوح نادرين، إلى قلب التصوّر التقليدي للعلاقة القائمة بين العلم واللاهوت. فالعلم لا يحقّق المنفعة فحسب، بل يخدم الدين أيضاً؛ ذلك أنّه إذ يكشف عن أسرار الطبيعة، يبرز

26. René Descartes, Principes de la Philosophie, Œuvres, Edition Ch. Adam et P. Tannery, IX-2, J. Vrin, Paris, 1978, première partie, §.30, p.32.

27. في هذا الصدد، كتب: «ربما يكون من المستحسن أن نميّز بين ثلاثة أنواع ودرجات من الطموح؛ الأوّل: طموح الإنسان الذي يصبو إلى أن يبسط سلطانه داخل وطنه، وهو طموح عامي وضيع، يليه من يحاول أن يوسّع من قوّة بلده وسيطرتها على الجنس البشري، وهو طموح أكثر احتراماً، لكنه ليس أقلّ من السابق طمعاً. أمّا إذا سعى الإنسان لأن يجدّد قوّة الجنس البشري عامّة، ويوسّع من سيطرته على الكون، فإنّ مثل هذا الطموح (إذا أمكن إطلاق هذا اللفظ عليه) إنّما هو أكثر عظمة ونُبلاً من الآخرين. إنّ سيطرة الإنسان على الأشياء تقوم على الفنون والعلوم فحسب؛ لأنّ السيطرة على الطبيعة لا تكون إلا بإطاعتها». أورده: الشاروني، حبيب، فلسفة فرنسيس بيكون، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1981م، ص 114

العظمة الإلهية، ومن ثمّة فإنّ البحث العلمي في الظواهر الطبيعية، بوصفها تجسيداً للأفكار الإلهية، كفيل بتدعيم المثل الدينية العليا. وفي هذا السياق، ميّز بين الفلسفة الطبيعية، والفلسفة الإلهية أو اللاهوت الطبيعي، معتبراً هذا الأخير نتيجة مباشرة للأولى. فالفلسفة الطبيعية، من حيث إنّها تبحث في الظواهر الطبيعية، تزوّد الفلسفة الإلهية بالمعطيات الكافية للبرهنة على الحقائق الدينية. ويبدو أنّ تصوّر بيكون هذا للعلم، ولعلاقته باللاهوت، أثّر في عدد مهمٍّ من علماء عصره، ولاسيما العلماء الإنجليز المؤسّسين للجامعة الملكية من أمثال بويل (R. Boyle) وهوك (R. Hooke).

من جهته، لم يتردّد نيوتن في تأكيد ضرورة إعطاء الأولوية للبحث في الطبيعة كونه إذ يسمح بفهم أسرار الطبيعة، وتسخيرها لخدمة الإنسانية، فإنّه يسمح بمعرفة أدقّ للخالق، وإبراز عظمته. وبذلك، فإنّ الفلسفة الطبيعية تؤدّي، حتماً، إلى اللاهوت؛ بل إنّها السبيل الأمثل لخدمته. ففي الملحق العام، وبعد أن قدّم بعض الصعوبات التي تعترض نظرية الدوامات، والتي تدعم تصوّره لنظام الكون، خلص إلى القول: «لا تصدر كلّ هذه الحركات عن أسباب (ميكانيكية) ما دامت المذنّبات تحمل بحرية في كلّ مكان في السماء، وفي مدارات متراكزة جداً [...] غير أنّ هذا التنظيم الرائع للشمس، وللكواكب، وللمذنّبات، لا يمكن أن يكون له مصدر آخر غير تخطيط وسيادة كائن عاقل وقويّ. وعلاوة على ذلك، إذا كانت النجوم الثوابت مراكز لأنظمة متماثلة، فإنّها ستتوقّف كلّها على سيادة [كائن] واحد؛ لأنّها ستشيّدُ وفق الخطاطة نفسها، لاسيما أنّ ضوء النجوم الثوابت يتمتّع بطبيعة ضوء الشمس نفسها، وأنّ جميع الأنظمة تتبادل الضوء فيما بينها. وحتى لا تسقط أنظمة النجوم الثوابت على بعضها بعضاً، بسبب ثقالتها، وضعها هذا الكائن على بعد مسافات كبيرة من بعضها بعضاً»[28].

و في السؤال الثامن والعشرين من **(رسالة في البصريات)**، وبعد أن عرض مجموعة من الظواهر فائقة الدقة والروعة، استخلص «ألّا يظهر من الظواهر وجود كائن لامادي، وحيّ، وعاقل، وحاضر، في كلّ مكان؟ كائن يرى مباشرة في المكان اللانهائي، كما لو كان محلّ إحساسه الأشياء في ذاتها، ويدركها ويفهمها تماماً وبعمق؛ لأنّها محايثة له مباشرة [...] وعلى الرغم من كون كلّ خطوة نقطعها، بالفعل، في هذه الفلسفة لا تفضي بنا إلى معرفة مباشرة للسبب الأوّل، فإنّها تقرّبنا منه، دوماً، أكثر فأكثر. ولهذا السبب إنّها طريقة في التفلسُف جديرة بكلّ تقدير»[29].

28. I. Newton, De Philosophiae Naturalis Principia Mathematica, Les Principes Mathématiques de la Philosophie Naturelle, traduction nouvelle, postface et bibliographie établies par Marie Françoise Biarnais, Collection Epistémè, Christian Bourgeois Editeur, Paris, 1986, pp.113-114.

29. I. Newton, Traité d'optique, Traduction R. Costes, Reproduction Fac-similé de l'édition 1722, Gauthier-Villard, Paris, 1955, pp.445-446.

تؤكّد هذه النصوص المنشورة، ونصوص أخرى كثيرة لا يتّسع المجال لعرضها، على الارتباط الوثيق للفلسفة الطبيعية باللاهوت، فمن جهة أولى، لا تقف الفلسفة الطبيعية، من حيث إنّها تنشغل باستنباط الأسباب من الظواهر الطبيعية، عند حدود الأسباب الثانوية أو الميكانيكية، ولكنّها تتعدّاها لتنفذ إلى السبب الأوّل. ومن جهة ثانية، لا تنشغل الفلسفة الطبيعية بالبحث عن الأسباب الفاعلة المؤدّية إلى السبب الأوّل فحسب؛ بل تنشغل، أيضاً، بالأسباب الغائية. فالبحث في نظام الكون يؤدّي، حتماً، إلى التساؤل عن الغاية التي خُلِق من أجلها[30].

و أخيراً، تثبت الفلسفة الطبيعية، بإبرازها دقّة وروعة نظام الكون وكائناته، وجود كائن لامادي حيّ، وعاقل، وحاضر في كل مكان. وإذا كانت هذه الفلسفة لا تسمح بمعرفة مباشرة وتامّة للخالق، فإنّها تقرّبنا منه أكثر فأكثر على الدوام. ولذلك فإنّ البحث في الطبيعة أفضل طريقة لمعرفة الذات الإلهية. فكلّما تقدّمنا في معرفة المخلوقات تقدمنا في معرفة الخالق، علماً بأنّه من المستحيل اكتساب معرفة تامّة بصدده نظراً لمحدودية عقلنا.

تترك هذه المعطيات المستنتجة من النصوص المنشورة الانطباع بكون نيوتن؛ إذ أكّد ارتباط الفلسفة الطبيعية باللاهوت، جعل من هذا الأخير انشغالاً بعدياً يلي البحث الطبيعي. غير أنّ المخطوطات النيوتنية تقلب المعادلة تماماً؛ إذ تكشف أنّه حدث لنيوتن أن اعترف بأسبقية وسمو المعرفة اللاهوتية على المعرفة العلمية. ففي (**الجاذبية وتوازن السوائل**)، مثلاً، أكّد أنّ دراسة (الطبيعة المادية) تفرض الانطلاق من الحقائق اللاهوتية؛ ذلك أنّه لا يمكن «أن نضع أجساماً من هذا النوع دون الإقرار بوجود الله في الوقت نفسه، وأنّه خلقَ الأجسام من لا شيء في مكان فارغ...»[31]. وفي هذا السياق، ذهب إلى حدِّ القول: إنّ المعرفة العلمية لا ترقى إلى مستوى يقينية الحقائق اللاهوتية فكتب: «وبعد أن وصفنا طبيعة الامتداد بقي لنا أن نفسِّر الطبيعة المادية. وبما أنّها لا توجد بالضرورة، وإنّما توجد بالإرادة الإلهية، فإنّ تفسيرها سيكون أقلّ يقينية، ما دمنا لا نعرف حدود القدرة الإلهية؛ أي ما دمنا لا نعرف ما إذا كانت المادة قد خُلقَت بطريقة واحدة، أو ما إذا كانت تُوجَد طرق مختلفة لخلق كائنات مختلفة بعضها عن بعض، ومماثلة تماماً للأجسام»[32].

30. في إحدى مسودات الملحق العام لكتاب المبادئ، كتب: «إذا كان الله قد ردَّ نظام الشمس والكواكب إلى النظام الأكثر جمالاً، فإنّ الأسباب الغائية لها مكانتها بالتأكيد في الفلسفة الطبيعية [...] ومن هنا، إنّه من المشروع التساؤل عن الغاية التي خُلِق من أجلها هذا العالم، وعن الحكمة التي زودت الأجسام السماوية بحركاتها، ووضعتها على بعد مسافات كبيرة [من بعضها بعضاً]. إنّه من المشروع أن نتساءل عن الكيفية والغايات التي شكّلت بها، ومن أجلها، أعضاء الحيوانات، وعن الصانع الذي زوّدها بهذا النظام، وبهذه البنية الأنيقة».

A.R. Hall, Umpublished Scientific Papers, Collection from Portsmouth Collection University Library, The University Press, Cambridge, 1965, p.349.

31. I. Newton, De la gravitation ou les fondements de la mécanique classique, Introduction, traduction et notes de Marie Françoise Biarnais, Les Belles Lettres, Paris, 1985, p.56.

32. المرجع نفسه، ص 48

علاوة على ذلك، اعترف نيوتن بكونه استنبط تصوّره للمادة من مبادئ لاهوتية؛ إذ كتب: «استنبطت وصف الطبيعة الجسمانية من القدرة على تحريك أجسامنا [...] لم يخلق الله العالم بفعل آخر غير إرادته، تماماً كما أنّنا نحرّك أجسامنا بفعل إرادتنا»[33]. وعليه، فإنّ تحديد طبيعة المادة تفرض -حسب نيوتن- العودة إلى أصلها، ومحاولة تفسير كيفية خلقها. وفي هذا السياق، أبرز أن التحديد الذي قدّمه للمادة (كائن ممتدٌّ، ومتحرّكٌ، وغير قابلٍ للاختراق) يقوم على أساس لاهوتي، أو تقتضيه عملية الخلق ذاتها.

خلاصة القول: يبدو لنا أنّه من الممكن جداً وسم الموقف النيوتني من مشكل علاقة العلم باللاهوت بالموقف التركيبي أو التوفيقي. فإذا كان قد أقام، على غرار معاصريه، علاقة بين العلم واللاهوت، فإنّه جعل منها علاقة وطيدة وجدلية. فمن جهة، أكّد مراراً التداخل بين العلم واللاهوت، ولم يحدث، أبداً، أن فصل بينهما كليّة. ومن جهة أخرى، حرص على إقامة علاقة جدلية بينهما مؤكّداً أنّ المعرفة العلمية؛ إذ تنطلق من الحقائق اللاهوتية، وإذ تعمل على اختراق أسرار الطبيعة، تشكّل أفضل وسيلة لإثباتها.

خاتمة:

اعتُبِر نيوتن من قِبَلِ معظم معاصريه عالماً خالصاً كرّس جلّ مجهوداته للبحث في مجالات علمية دقيقة، ولم يستقطب اللاهوت اهتمامه إلّا في مناسبات نادرة وعرضية. تبنّت الوضعانية هذا الموقف، فرفضت الحديث عن لاهوت نيوتني بوصفه جزءاً لا يتجزأ من فلسفته. إنّها -و إن أقرّت بوجود لاهوت نيوتني- اعتبرته مجرّد ملحق هامشي لفلسفته الطبيعية. حاولنا، في هذا المقال، الكشف عن بعض مظاهر قصور هذه القراءة التي ظلّت مهيمنة إلى حدود العقد الرابع من القرن الماضي.

فمن جهة أولى، أبرزنا أن نيوتن كتب كثيراً في مجال اللاهوت، وفي مجالات أخرى دأبت الوضعانية على وسمها بـ (اللاعلم)، مثل: الخيمياء والتنجيم. غير أنّه لم ينشر إلا النزر القليل من كتاباته اللاهوتية. وعلاوة على ذلك، اتسمت النصوص اللاهوتية التي نشرها بالبساطة والسطحية، ولم تكن ترقى إلى مستوى النصوص اللاهوتية المتداولة آنذاك. الأمر الذي ترك الانطباع بأنّ انشغال نيوتن باللاهوت كان انشغالاً هامشياً.

مباشرة بعد وفاته، اتّضح أنّه ترك ركاماً هائلاً من المخطوطات اللاهوتية. غير أنّ تلك المخطوطات لم توضع تحت تصرُّف الباحثين إلا منذ أواخر العقد الرابع من القرن الماضي. سمحت تلك المخطوطات بالكشف عن تهافت الصورة التقليدية، التي نُسِجَت حول نيوتن؛ إذ اتّضح أنّه كان لاهوتياً من العيار الثقيل؛ انشغل باللاهوت طوال حياته العلمية، وخاض في جلِّ الإشكالات اللاهوتية التي كانت مطروحة آنذاك.

33. المرجع نفسه، ص 54

من جهة ثانية، أبرزنا أنّ نيوتن يتحمّل مسؤولية في الصورة التي نُسِجَت حوله بسبب تكتُّمه، وإخفائه جانباً مهمّاً من نشاطه الفكري، بما في ذلك النشاط اللاهوتي. وفي هذا السياق، عملنا على إبراز أن عزوفه عن نشر كتاباته اللاهوتية لا يعود، فحسب، إلى بنيته النفسية الميالة إلى الانعزال، والحريصة على تفادي الجدالات الفلسفية المؤرّقة، ولكنّه يعود، أيضاً، إلى عوامل فكرية، وسياسية، ودينية.

وأخيراً، توقّفنا عند علاقة العلم باللاهوت لدى نيوتن. أبرزنا أنّ المفكرين المعاصرين له اختلفوا كثيراً حول هذا الموضوع. فمنهم من أخضع العلم للاهوت، ومنهم من أخضع اللاهوت للعلم. خلافاً لذلك، بدا لنا أنّ نيوتن؛ إذ أقام علاقة وثيقة بينهما، حرص على جعلها علاقة جدلية ومتوازنة. فالمعرفة العلمية؛ إذ تعمل على سبر أغوار الطبيعية، تنطلق من الحقائق اللاهوتية، وتشكّل أفضل وسيلة لإثباتها.

المراجع:

1. B.J.T. Dobbs, «Newton as Final Cause and First Mover», ***Isis***, 1994
2. Bruno Jarosson***, Invitation à la philosophie des sciences***, Ed. du Seuil, Paris, 1992
3. W. Whiston, Sir Isaac Newton's Corollaries from his Philosophy and Chronologie inhis own Words, London, 1929
4. D. Brewster, Memoirs of Sir Isaac Newton, Edinburg, 1855
5. J.M. Keynes, «Newton, the man», in Royal Society trecentenary Celebrations (15-17 juillet 1946), The University Press, Cambridge, 1947
6. Pierre Thuillier, «Isaac Newton, un alchimiste pas comme les autres», La Recherche, n°212, Juillet/ Aout 1989, Vol.20
7. Elisabeth Tuttle, Les Iles Britaniques à l'âge moderne 1485-1783, Hachette, Paris, 1996
8. René Descartes, Principes de la Philosophie, Œuvres, Edition Ch. Adam et P. Tannery, IX-2, J. Vrin, Paris, 1978, première partie
9. Newton, De Philosophiae Naturalis Principia Mathematica, Les Principes Mathématiques de la Philosophie Naturelle, traduction nouvelle, postface et bibliographie établies par Marie Françoise Biarnais, Collection Epistémè, Christian Bourgeois Editeur, Paris, 1986
10. Newton, Traité d'optique, Traduction R. Costes, Reproduction Fac-similé de l'édition 1722, Gauthier-Villard, Paris, 1955
11. A.R. Hall, Umpublished Scientific Papers, Collection from Portsmouth Collection University Library, The University Press, Cambridge, 1965
12. Newton, De la gravitation ou les fondements de la mécanique classique, Introduction, traduction et notes de Marie Françoise Biarnais, Les Belles Lettres, Paris, 1985

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017